بسم الله الرحمان الرحيم

وبه نستعين

مقاصد التكامل المعرفي بين العلوم الاسلامية والانسانية والاجتماعية في التجربة الاسلامية والغربية

الدكتور عبد النور بلهوشات

مقدمة:

إن مسألة التكامل المعرفي بين مختلف العلوم في الدولة الاسلامية، وخاصة في التجربة العباسية والأندلسية، لم تطرح كإشكال قط. بل إن المتعارف عليه بين علماء المسلمين آنذاك اتقان العلوم التي كان يُعتقد بأنها أدوات لا مناص منها للتواصل مع الحقيقة الربانية واستكشاف قوة خلقه وآياته في الكون. لذا كان العلماء المسلمون في تلك العصور يتبنون صورة تكاملية لغايات وأهداف هذه المعارف، فقد كانت وسيلة للجمع بين عالم الغيب والشهادة، وأدوات تواصل لتحقيق التواصل والتكامل في علاقة الانسان بخالقه وآياته في الكون. في حين شهدت التجربة الاسلامية زخما واعتناء عظيما من جهة الغرب الذي آخذ مشعل النهوض بعد كبوة قرون الظلام والتخلف وبعد تراجع العلوم والمعارف الاسلامية. لكن الحداثة الغربية تنصلت من ميثاق ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، لذا اتسمت المعارف الانسانية والاجتماعية منذ زمن الأنوار بقطعها حبل التواصل مع الدين والوحي وكانت القطيعة النهائية بين الديني والدنيوي في القرن التاسع عشر. إذ شهدت هذه الفترة ظهور التخصصات المعرفية –الانسانية والاجتماعية منها– وانفصالها التام عن اللاهوت والقيم الدينية. واقترن هذا الانفصال بتحقيق الرابطة القوية بين السلطة والمعرفة (أو ما أضحى يُعرف بالعلوم في خدمة الامبراطورية)، وذلك بعد أن تحقق المبدأ البيكوني الموسوم ب"المعرفة من أجل القوة" وبعد أن تحققت بعض أهداف النهضة الأوروبية.

في هذه الورقة حاولنا التساؤل عن بعض مقاصد الاشراقات النورانية في تحقق التكامل المعرفي بين العلوم الاسلامية والاجتماعية والانسانية في الحضارة الاسلامية وخاصة في الفترة العباسية، وعطفنا بعض جوانب التجربة الاسلامية بأهداف هذه المعارف ووضعيتها في الغرب، واخترنا الظاهرة الاستشراقية كنموذج معرفي في خدمة مشروع الهيمنة والسيطرة الغربية. واستندت هذه الورقة، خاصة في مقاربة التجربة الاسلامية، على بحث قام به الباحث الأكاديمي موسى الغربي، من جامعة كولومبيا، بالولايات المتحدة الأمريكية، والموسوم ب "أهل الكتاب: الامبراطورية والعلوم الاجتماعية في فترة الكومنولث الاسلامي" (People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period) حيث أشرنا إلى تأكيده على بعض مقاصد العلوم والمعارف الانسانية والاجتماعية الاسلامية في وصلها بين عالمي الغيب والشهادة، بالرغم من انحيازه في ربطه المنتوج العلمي والمعرفي الاسلامي بما يسميه "الامبراطورية الاسلامية". ولجأنا أيضا إلى الموسوعة العالمية للفلسفة لرصد بعض أغراض المعارف الغربية وانفصالها عن القيمة والأخلاق.

التكامل المعرفي كتجربة مضيئة في النورانيات الاسلامية

ينظر بعض الباحثين والمتخصصين إلى الاكتشافات والابتكارات السريعة التي أحرزها العلماء المسلمون إبان زهرة الحضارة الاسلامية بعناية واهتمام كبيرين. فقد كان العلماء المسلمون، بالإضافة إلى اتقانهم علوم الشريعة ومقاصدها، يقومون بتطبيق المناهج العلمية على العالم الطبيعي، وسعوا إلى إحراز تقدم مماثل في القضايا الاجتماعية، باستخدام العقل والرياضيات والملاحظة المنهجية والتجربة التكرارية لاكتساب نظرة أعمق على الأسئلة والتحديات الاجتماعية. وفي هذه العملية، أنشأوا مجالات جديدة من البحث وحقول المعرفة التي سيتم البناء عليها وتوسيعها من قبل الأجيال اللاحقة من العلماء، سواء داخل السياق الإسلامي أو خارجه.

فقد دافع الخوارزمي (ت-228هـ) والكندي (ت 251هـ) عن اعتماد النظام العددي الهندي في ربوع الدولة العباسية. سمحت كفاءة هذه الأرقام، وإدراج الرقم صفر (الذي كان أيضا مفهوما فلسفيا قويا) ، بتطوير وتنفيذ عمليات رياضية أكثر تعقيدا بكثير من النظام البابلي الذي اعتمد عليه المسلمون سابقا. واصل الخوارزمي إحراز التقدم والريادة في الجبر والخوارزميات وايجاد الصيغة التربيعية، مما سمح بحل عمليات حسابية أكثر تعقيدا من قبل علماء الإسلام اللاحقين ومهد الطريق لظهور البحوث التجريبية الكمية.[1] [1]

ومن شأن الالتزامات الحضارية والانسانية أن تدفع المسلمين أكثر في اتجاه البحث والاستكشاف. فعلى سبيل المثال، بالاعتماد على علم الكونيات الفيثاغوري، فهم علماء المسلمين الأرقام على أنها كيانات نوعية، وليست مجرد كيانات كمية. كانت الأرقام بمثابة سلم يربط بين المادي والميتافيزيقي: فمن خلال الأرقام، كان يعتقد أنه يمكن للمرء أن يفهم بشكل أفضل أعمال الإنسان والعالم الطبيعي، وبالتالي صنع وابداع خالقهما. ونتيجة لهذه القناعات، ظهرت الرياضيات في وقت مبكر كمجال مركزي في الدراسات الإسلامية وتم دمجها في العديد من مجالات الدراسة الأخرى. بل إن الخوارزمي نفسه كان رائدا في إظهار إمكانية وفائدة الرياضيات التطبيقية.[22] وهكذا نقرأ أن تبني المسلمين لمثل هذه العلوم كان لغرض الربط بين عالمي الغيب والشهادة.

ووصف الكتاب الشامل عن الحساب عن طريق الإكمال والموازنة بأنه ذي قيمة "عملية". يوضح ما يقرب من نصف الكتاب قوة هذا الشكل الجديد من الحساب طريقة حل المشكلات المتعلقة بتوزيع الميراث

---

[1] Rashed Roshdi. 1988. "Al-Khwarizmi's Concept of Algebra." Pp. 98–111 in *Arab Civilization: Challenges and Responses*, edited by Atiyeh G. N., Oweiss I. M. Albany: State University of New York Press. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

[2] Rashed Roshdi. 1994. *The Development of Arabic Mathematics: Between Arithmetic and Algebra*. Berlin: Springer Science + Business Media. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

بشكل صحيح وفقا للشريعة الإسلامية، والكثير من بقية النص موجه نحو استخدام الرياضيات لحل مشاكل التنسيق والعمل الاجتماعي الأخرى. كانت هذه بمثابة ثورة في الفكر إلى جانب الجمع أو الطرح الأساسي الذي يستخدمه التجار أو الكُتاب (وعادة بمساعدة أدوات الحساب). بينما يلحظ الغربيون أن الناس لم يستخدموا الرياضيات لأغراض عملية في اليونان القديمة أو روما . إن دمج المسلمين للرياضيات كوسيلة لمعالجة القضايا العملية والبحث التجريبي في العالم مكن من تحقيق اختراقات في مجالات مثل الفيزياء ولكن أيضا في التخصصات ذات التوجه الاجتماعي مثل رسم الخرائط ، والديموغرافيا والاقتصاد.[1]

كان ابن الهيثم (ت – 418هـ) من بين الأوائل الذين صاغوا منهجية للبحث التجريبي ، يشار إليه الآن باسم "المنهج العلمي والمتمثل في.1:"تحديد مشكلة. .2 صياغة فرضية حول الإجابة عن هذه المشكلة.3.اختبار الفرضية من خلال التجريب. وأكد بأنه إذا كانت هذه التجارب والنتائج صحيحة، فيجب أن تكون قابلة للتكرار.4. تحليل النتيجة بدقة عن طريق المنطق والرياضيات.5. التوصل إلى استنتاج حول ما يمكن أخذه (إن وجد) من التجربة. 6. نشر النتائج إذا بدت جديرة بالاهتمام، إلى جانب الأساليب والبيانات، ليتم نقدها وصقلها والبناء عليها من قبل الآخرين.

مثل هذا الشكل من البحث التجريبي المنهجي ثورة أخرى في الفكر لدى المسلمين، فقد تم الاستخفاف بالاستقراء وتجاهله من قبل سقراط وأفلاطون ومعظم المثقفين اليونانيين البارزين. كان أحد أكثر ادعاءات أرسطو الفلسفية إثارة للجدل والرائدة هو أن الملاحظة يمكن أن تحفز الحدس وتولد شكلا فجا ولكنه أساسي من المعرفة – ليتم اختباره أو صقله أو جعله كاملا عن طريق النظرية. ومع ذلك، حتى بالنسبة لأرسطو، كانت فكرة تحقق أو خطأ النظرية بالوسائل التجريبية بعيدة الامكان، وسواء تحققت النظريات أو سقطت من خلال البراهين المنطقية والحجج والحدس وما إلى ذلك. على الرغم من أن الاستقراء كان

[1]Taleb Nassim N. 2014. "History Written by the Losers." Pp. 217–40 in *Antifragile: Things That Gain from Disorder*. New York: Random House. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

ينظر إليه بشكل أفضل في التجربة الهندية الكلاسيكية، إلا أن منهج ابن الهيثم القوي لتطوير البيانات التجريبية واختبارها والبناء عليها يبدو أنه ليس له سابقة خارجية. وهكذا انضمت أعمال ابن الهيثم إلى قائمة الابتكارات الإسلامية الرئيسية للفكر العلمي[1].

قام العلماء المسلمون بشكل متعمد بعدم الفصل بين "المعارف" و "العلوم". سمح هذا لهم بالتعامل مع مجالات مثل الطب والصيدلة والكيمياء والمعاجم والدراسات الاجتماعية بالدقة النظرية والمنهجية والرياضية. و تم تمكين العلماء من تجاوز مفاهيم إقليدس وأرسطو الأكثر ضيقا للعلوم من خلال الدمج بين أدوات منهجية، وأبرزها الاستدلال من الملاحظة والاختبار التجريبي. ويبدو أن هذا التكامل بين العلوم والمعارف كان مدفوعا في جزء كبير منه بمسألة مركزية التوحيد في الفكر الإسلامي: فجميع الظواهر في العالم، ومجالات المعرفة حول العالم، كانت مرتبطة بشكل أساسي بالله ومن خلاله.[2]

وفي الوقت نفسه، كانت دعوة ابن الهيثم لنشر النتائج والأساليب والبيانات العلمية للمجتمع الفكري لنقدها والبناء عليها مستنيرة وممكنة بالمثل من خلال نشأة الإسلام ومنهجيته في الاستدلال والبرهان: فقد تم نقل أقوال وأفعال النبي(صلى الله عليه وسلم) والصحابة الأوائل — بل الواقع القرآن نفسه – شفهيا طوال المرحلة التأسيسية للإسلام. ونتيجة لذلك، ومنذ فجر الاسلام، كان هناك تركيز على النقل الدقيق، والسعي إلى التوصل إلى توافق في الآراء فيما يتعلق بالمسائل المختلف فيها، وتوثيق الأدلة، والاستشهاد بالمصادر، وتقييم سلطة الحسابات المختلفة وسلاسل النقل.

وكان القرآن المصدر الذي استنبط منه علماء الاسلام المنهج القويم في البحث والتحقق من المعلومة وتوثيقها وتثبيتها. فالقرآن يدعو المسلمين مرارا وتكرارا إلى دراسة العالم من أجل فهم خالقه بشكل أفضل، والجمع بين الملاحظة والدليل والعقل من أجل التمييز بين الصواب والباطل، أو في حالة العجز، الإذعان لحكم أولئك الذين وهبهم الله فهما و تمييزا كبيرا. أخذ المسلمون هذا التفويض على محمل الجد. وفي الواقع، ووفقا للباحث المستشرق فرانز روزنتال، أصبحت المعرفة "الشاغل المركزي" للحضارة الإسلامية خلال هذه

---

[1] Ibid

[2] Rashed Roshdi. 1981. "Islam and the Flowering of the Exact Sciences." Pp. 133–67 in Islam, Philosophy and Science. Paris: UNESCO Press.

الفترة، وحددت "مشهدها الفكري والمجتمعي بأكمله".[1] وأظهر الحكام والتجار الأثرياء سخائهم وكرمهم من خلال الاستثمارات الكبرى في التعليم وإنتاج المعرفة. ونتيجة لذلك، كانت المكتبات العامة شائعة، وكانت المدارس والمكتبات ملحقة بمعظم المساجد، وكان محو الأمية واسع الانتشار نسبيا. وفي عام 237هـ ، أنشأت فاطمة الفهري، في تونس، أول جامعة تمنح درجة علمية في العالم، فكانت القرويين حصنا للعلم والمعرفة. وبدأت جامعة الأزهر في القاهرة في قبول الطلاب في 353هـ. . وسيقوم نظام الملك بمنح امتياز كامل للمدارس النظامية، التي تأسست مثيلاتها وأرقى منها في بغداد حوالي 443هـ .[2]

وعلى الصعيد التكنولوجي، قام المسلمون بتنقيح الأساليب الصينية لإنتاج الورق وإقرانها بالأساليب الهندية لتجليد الكتب. وقد سمح هذا، إلى جانب التقنيات المبتكرة لإعادة إنتاج النصوص، بالإنتاج الضخم للمخطوطات المتينة . وسمح الجمع بين هذه التقنيات والبنى التحتية المتاحة بتجميع المعرفة من جميع أنحاء العالم وصقلها والبناء عليها ونشرها على نطاق لم يسبق له مثيل حتى الآن في تاريخ البشرية. كان هذا هو السياق الذي ولدت فيه العلوم الاجتماعية الإسلامية[3]. وتأتي أعمال بعض الفلاسفة المسلمين لتطبق هذه المنهجية العلمية في الدراسات والأبحاث الاجتماعية، لذا ارتأينا تسليط الضوء على بعض رواد الفكر والفلسفة في تبنيهم لهذا المنهج.

الفارابي

---

[1] Rosenthal Franz. 2012. "Dawla." In *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. BrillOnline Reference Works. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

[2] Nasr Seyyed H. 2001. *Science and Civilization in Islam.* Chicago: Kazi. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

[3] Burke EdmundIII. 2009. "Islam at the Center: Technological Complexes and the Roots of Modernity." *Journal of World History* 20(2):165–86.

استكشف الفارابي (ت 339هـ) كلا من الاحتياجات النفسية التي تدفع الناس إلى تشكيل المجتمعات ومدى تشكيل بنية المجتمع لشخصية وسلوكيات مكوناته، وذهب إلى حد الإصرار على أن الناس لا يمكن أبدا أن يكونوا سعداء حقا ما لم يكونوا أعضاء في مجتمع فاضل. وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى تساؤلات حول الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع، مثل: ما هي أشكال التنظيم الاجتماعي التي تعزز الفضيلة أو تسمح بتطورها على أفضل وجه؟ وكيف يمكن إنشاؤها والحفاظ عليها؟ لذا يعتقد الفارابي أن الفلسفة ضرورية للإجابة على هذه الأسئلة. كان ينظر إلى الوحي والعقل على أنهما متكاملان ويعززان بعضهما البعض: ففي غياب الفلسفة، يرى الفارابي أنه لا يمكن للمسلمين أبدا أن يكون لديهم فهم أو يقين كاملين للحقائق الإلهية ولا يمكنهم أبدا الاستفادة الكاملة من المعطى الروحي الذي منحه لهم الأنبياء. وعلى هذه الأسس، قام إلى جانب الكندي بحملات حث وتوعية للمسلمين بضرورة الحفاظ على النصوص اليونانية–الرومانية وترجمتها واستخدامها. وأظهر الفارابي قوة الفلسفة في معالجة الأسئلة حول غرض المجتمع وبنيته[1].

ولكن على الرغم من حبه للفلسفة واحترامه للفلاسفة القدامى، جادل الفارابي بأن مشروعهم بدى نسبيا فقيرا، بسبب افتقارهم إلى الأساس المتمثل في حقيقة الوحي . وعلى غرار الرازي، جادل الفارابي بأن المسلمين في وضع جيد يمكنهم من تجاوز "القدماء" في التعلم. وقال إن الإغريق بدوا عميانا عن حدود العقل، مما دفعهم إلى السعي وراء أهداف مستحيلة وافتراض أن الكيانات الخيالية ليست حقيقية فحسب، بل أكثر واقعية وأكثر أهمية من العالم الذي نعيش فيه بالفعل: فبالنسبة لأفلاطون وأرسطو، كانت الفلسفة تدور حول اكتشاف الحقائق " الكبيرة"، للتعرف على الجواهر "الحقيقية" للظواهر "الظاهرة" التي ندركها بحواسنا. وفي كتابه "البرهان"، وصف الفارابي هذا بأنه خطأ أحمق[2].

---

[1] Mahdi Mushin. 2001. *Al-Farabi and the Foundation of Islamic Political Philosophy*. Chicago: University of Chicago Press. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

[2] Ibid

وقال إن الفلسفة مفهومة بشكل أفضل على أنها سعي لفهم قوى وشروط وقيود المعرفة البشرية. فخلافا للفكر اليوناني الكلاسيكي (والكثير من الفكر المسيحي)، أصر الفارابي على أن عالم تجربتنا ليس مجرد شبح أو وهم، وبالتالي، يجب على الفلسفة أن تقدم وصفا للعالم الذي نعيش فيه فعليا، بدلا من محاولة التركيز على ما هو أبعد منه فحسب. هذا التحول، من "الميتافيزيقا إلى المنهج، غيّر بشكل كبير كل من طابع وغرض البحث الفلسفي .على سبيل المثال، نظر أفلاطون وأرسطو إلى الفلسفة على أنها أعلى الأنشطة البشرية – شبه الإلهية – وهي غاية في حد ذاتها. (وبغض النظر عما إذا كان قد تم إحراز تقدم بشأن هذه المسائل أم لا، وبغض النظر عما إذا كان التحقيق قد أسفر عن رؤى مفيدة)، فإن السعي وراء الحقائق "الكبيرة" كان ينظر إليه في حد ذاته على أنه ذو قيمة. رفض الفارابي هذا الخط من الفكر، وافترض أن الفلسفة لها قيمة فقط بحكم تطبيقها في العالم. إذ كان من واجب الفلاسفة ترجمة حكمتهم إلى سياسات تعزز سعادة الإنسان ورفاهيته، والاستفادة من النظرية نحو تفسير الشؤون الدنيوية والاستجابة لها بفعالية، والعمل كثقل موازن للتفكير الضيق أو الرجعي بشكل مفرط [1].

كان على الفلاسفة أن يؤدوا هذه الواجبات، أولا وقبل كل شيء، من خلال توفير التوجيه للحكام والتدريب للوزراء. ومع ذلك، بذل الفارابي أيضا جهودا مضنية للكتابة بطريقة واضحة ومقنعة ويمكن الوصول إليها – وتجنب أن يكون حزبيا في الصراعات اللاهوتية والطائفية والسياسية في عصره – من أجل السماح لأوسع شريحة ممكنة من المجتمع بالاستفادة من مشروعه. وشجع الآخرين على أن يفعلوا الشيء نفسه، مصرا على أن القدرة على ربط أفكار المرء بقدرات واحتياجات الناس العاديين هي علامة "الفيلسوف الحقيقي"[2]

[1]Mahdi Mushin. 1987. "Al-Farabi." Pp. 206–27 in History of Political Philosophy, edited by L. Strauss, Cropsey J. Chicago: University of Chicago Press. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

[2] Mahdi Mushin. 1962. "Introduction to the 1962 Edition." In *Al-Farabi: Philosophy of Plato and Aristotle*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

ووصف الفارابي البحوث التي تستكشف التنظيم الاجتماعي السليم والقيادة بأنها "العلوم السياسية". وقد تطورت لتصبح مجالا أساسيا للبحوث الإسلامية خلال فترة الخلافات الإسلامية وما بعدها، وتركزت على استنباط القواعد العامة للقيادة الرشيدة، وكيفية تحديد أولويات القواعد في حالة وجود نزاع، وتقديم التوجيه حول كيفية تطبيق القواعد العامة على حالات معينة. لكن منهجية الفارابي لم تحظى بموافقة كليّة، فقد شهدت التجارب المعرفية والعلمية الاسلامية تنوعا وتباينا كبيرين في المنهج والمقاصد.

البيروني

في كثير من النواحي، كان البيروني (ت 426) تجسيدا لفكر الفارابي المثالي. كان باحثا بارزا عمل أيضا كمستشار مقرب للعديد من أهم الشخصيات السياسية في عصره، حتى أنه كان يعمل كدبلوماسي في بعض الأحيان. اختلف مع ادعاء الفارابي بأن البحث يكتسب أهمية في المقام الأول من خلال التطبيق. وبدلا من ذلك، أصر البيروني على أن جدارة البحث العلمي قد ترسخت في القرآن نفسه، من خلال دعواته المتكررة للمسلمين إلى "التأمل في السماء والأرض التي خلقها الله بالحق"[1]. أي أنه لا ينبغي السعي إلى إنتاج المعرفة كغاية في حد ذاتها ولا كوسيلة لتعزيز سعادة الإنسان أو قدراته فحسب، بل من أجل تحقيق خلافة الله وخطته في الأرض. أي تحقيق الخضوع للإسلام.

تأثر البيروني كثيرا بالرازي. كتب سيرة ذاتية عن حياته، وجمع ببليوغرافيا لأعماله، وكتب سلسلة من الانتقادات لأبحاثه في الفيزياء. وبعد أن استأنف البيروني من حيث توقف الرازي، سعى جاهدا لتوسيع دائرة العلم، ليشمل البحث الاجتماعي، في اتجاه أكثر تجريبية. على الرغم من أنه تم تبني فكرته على نطاق واسع بين العلماء المسلمين في عصره بأن النظريات يمكن إثراؤها أو تقييدها أو تقويض مصداقيتها من خلال الحقائق المرصودة، جادل البيروني بأن النظريات يجب أن تستمد أيضا بشكل استقرائي. وهكذا

[1]Nasr Seyyed H. 1978. An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines. Bath, UK: Thames & Hudson. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

يجب أن تتعلق الفرضيات بالانتظام الملحوظ أو الانحرافات الظاهرة (بدلا من الانطلاق من البديهيات المنطقية أو الأيديولوجية) ثم يتم اختبارها عن طريق التجريب والعمل الميداني كلما أمكن ذلك[1].

وبالإضافة إلى أبحاثه الإثنوغرافية حول "الهندوس"، التي اشتهر بها اليوم، أجرى البيروني دراسات مكثفة حول الزرادشتية واليهودية والمسيحية والبوذية. كان هدفه الواضح في جميع هذه الأعمال هو ربط تاريخ وممارسات وادعاءات الآخرين بشروطهم ومعاييرهم الخاصة ، بدلا من تقييم الأديان والثقافات الأخرى بشكل معياري حسب نظر المذاهب الإسلامية والنظم الاجتماعية.[2]

إذن، نستشف من بعض التجارب الاسلامية الرائدة في التكامل المعرفي أنه كان يرتجى من ورائه وصل عالم الغيب بالشهادة، واستكشاف سنن الخالق في الكون وفي الأمم، والتأصيل للنظريات التي تسعى إلى بناء المجتمعات الفاضلة والأخلاقية. فكان هدف التجربة الاسلامية في ميدان المعارف تحقيق السعادة الانسانية في الدنيا والآخرة وربط الانسان بخالقه وتعريفه بالغرض من خلقه ووجوده في هذه الحياة. لكن نجد الباحث الأكاديمي موسى الغربي، الذي أشرنا إليه في المقدمة، ورغم اقراره بمقصد المعارف الاسلامية في خدمة الروحانيات الايمانية، إلا أنه يربط أيضا العلوم والمعارف الانسانية والاجتماعية في التجربة الاسلامية بما يسميه "الامبراطورية" –أو ما يعرف باقتران المعرفة بالسلطة والقوة في نزعة استشراقية انحيازية واضحة – فيقول:

غالبا ما يتم اعتبار علماء "ما قبل الحداثة" أو "غير الغربيين"، مثل أولئك الذين تمت مناقشتهم هنا، نماذج لبناء علم اجتماعي غير إمبراطوري أو غير استعماري (بما في ذلك في العديد من الأعمال المذكورة هنا). غالبا ما يتم تقديم الأنظمة الإسلامية التاريخية بشكل إيجابي على النقيض من تلك التي أصبحت سائدة

---

[1] Ibid

[2] Akbar Ahmed. 1984. "Al-Beruni: The First Anthropologist." Royal Anthropological Institute News 60:9–10. In Al Gharbi Musa, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. Seen on 10/11/2022.

في الغرب. ومع ذلك ، من الأهمية بمكان فهم الإمبراطوريات الإسلامية كإمبراطوريات وعلماء الاجتماع الذين تمت مناقشتهم هنا كعلماء إمبراطوريين، وغالبا ما يكونون ملتزمين بشدة بالحفاظ على القوة الإمبريالية وتوسيعها.[1]

لكن في جل عمله فشل هذا الباحث في تسليط الضوء على أمثلة واضحة تربط بين المنتوج العلمي والمعرفي الاسلامي بما يسميه "التوسع الامبريالي وقوته"، كما هو الحال مع الامبريالية الغربية. ولا يأتي بأمثلة عن تصوير العلماء المسلمين الرحالة للأمم الأخرى خدمة للدولة ومشروع السيطرة والهيمنة. ولا يفرق بين التوسع الاسلامي قصد نشر رسالة الاسلام في أعلى مقاصده، بالرغم من امكانية وجود أخطاء وتجاوزات، وبين التوسع الامبريالي المادي والنفعي المحض. ولا يسجل الباحث مظاهر الابادة الكولونيالية وأين وقعت ولا زالت تقع في عصرنا. جميع هذه النقاط وغيرها كثير، يغفل عنها الباحث بشكل فاضح وفج. وإذا اتضح غرض التكامل المعرفي في النورانيات الاسلامية، فإن مقصدها شهد تباينا كبيرا في تجربة الحداثة الغربية كما سيأتي معنا.

مُخرجات التكامل المعرفي في الحضارة الغربية: أو فصل القيمة عن الواقع وقطع حبل التواصل بين عالم الغيب والشهادة وتحقيق هدف السيطرة والهيمنة.

قامت النهضة الأوروبية على ركام تراجع وانحطاط الحضارة الاسلامية، فاستلهم الأوروبيون التجارب الاسلامية في البحث العلمي من المناهج الاسلامية بعد نقلها وترجمتها، فاستفادوا مما قدمه علماء المسلمين للبشرية في النهوض بعد سبات وظلام كبير.

[1] 3Musa Al Gharbi, People of the Book: Empire and Social Science in the Islamic Commonwealth Period, https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/23780231211021200. P87.

إلا أنه ومع التقدم الغربي الملحوظ للعلوم في القرنين التاسع عشر والعشرين، أصبح التمييز بين الحقيقة والقيمة راسخا في الفلسفة السائدة والعلوم الاجتماعية. وأصبح ينظر إلى العلم على أنه يقدم أوصافا حيادية القيمة (value-neutral) لواقع قائم بشكل مستقل. وفي مقابل ذلك، أضحى الكثيرون ينظرون إلى القيم الأخلاقية على أنها مجرد تعبيرات عن المواقف العاطفية. تشير هذه النظرة للأخلاق إلى أن جميع الرؤى الأخلاقية تسير على نفس المستوى المنطقي ، مع عدم وجود أي منها قادر على إثبات صحته أو تفوقه على البقية.[1]

وأدت عملية اقصاء المبادئ الالهية في الكون و استبعاد وجود حقيقة أخلاقية موضوعية تجمع بين القيمة والواقع إلى اتكاء الحداثة على العقلانية الخالصة مما سمح لها بالمضي قدما نحو تحقيق مشروع السيطرة على الطبيعة من خلال التغول التكنولوجي و من ثمة السيطرة على الانسان بحد ذاته. فقد كان المبدأ البيكوني القائم على "المعرفة من أجل القوة" شرارة أولى لبعث محرك مشروع الهيمنة والسيطرة هاته، وكان الفصل بين القيمة والواقع التي كان هيوم أحد روادها معول هدم قضى على ما تبقى من أثار لمعاني وجود حقيقة أخلاقية موضوعية. فكان أهم غرض للعلوم الانسانية والاجتماعية أتت به الحداثة هو قطع حبل الصلة بين الحقائق الموضوعية والجهة المتعالية والسامية التي أملتها. وجادل هوبز من أجل مفهوم العقد الاجتماعي للأخلاق الذي يرى بأن القواعد الأخلاقية، مثل القوانين، شيئا يتفق عليه البشر من أجل جعل العيش الاجتماعي ممكنا. ومن الآثار المترتبة على هذا الرأي أن المبادئ الأخلاقية ليست صحيحة أو خاطئة وفقا

[1] أنظر الموسوعة العالمية للفلسفة، International Encyclopedia of Philosophy, iep.edu.com/relativism
Seen on 14-11-2022

لما إذا كانت تتوافق مع مخطط متسامي أو متعالي ما؛ بدلا من ذلك ، ينبغي تقييمها بشكل عملي وفقا لمدى خدمتها لأغراض البشر.[1]

ومن مظاهر هذه السيطرة التي كرستها العلوم والمعارف الغربية، وكان باكورة بعثها مشروع الأنوار كما يسميه الفيلسوف الاسكتلندي آلستير ماك انتير، اجتماع علمائها ومفكريها ومثقفيها، على اختلاف ميادين تخصصاتهم وعلومهم ومعارفهم، على دراسة وتحليل حضارات الشرق، وعلى وجه الخصوص الحضارة الاسلامية والعربية، من أجل بسط الهيمنة والنفوذ على خيرات ونفوذ هذه المنطقة التي حباها الخالق سبحانه بمختلف الخيرات والطاقات والموارد. فقد بدت الظاهرة الاستشراقية اليد الأداتية والأدائية على مختلف الأزمنة والعصور لمشروع الهيمنة والسيطرة الامبريالية. ونجد أن الألة الاستشراقية، كما في تعبير المفكر إدوارد سعيد، قد جمعت جيوشا من علماء فقه اللغة، والتاريخ، والفلسفة، واللاهوت، والاجتماع، والسياسة، والانثروبولوجيا وغيرها من المعارف، لتمثيل الآخر و من ثمة إخضاعه والسيطرة عليه. و وجدت هذه الجيوش المجيَّشة في هذه المعارف مُعينا ووسيلة لتحقيق أهدافها . وهكذا بعد أن تم الفصل بين العلم والأخلاق وقطع الصلة بين الانسان وخالقه، أضحت هذه المعارف أدوات ووسائل لتقسيم الشعوب وإخضاعها، والتفريق بين الأمم المتقدمة والمتفوقة وأخرى متأخرة ومنحطة. بينما توحي المعارف والعلوم الاسلامية بالقيمة العظمى في التواصل مع أنوار السماء وبثها في أرجاء المعمورة بما يخدم سعادة الانسان في العاجل والآجل.

[1] أنظر الموسوعة العالمية للفلسفة، Seen on 14- International Encyclopedia of Philosophy, iep.edu.com/relativis 11-2022

خاتمة:

لقد كان السبق والريادة للعلماء المسلمين في اكتساب العلوم والمعارف الشرعية والانسانية والاجتماعية، وابداع مناهج تجريبية فاقت تلك التي قامت على مجرد التأمل والحدس والتنظير. وكانت المناهج الاسلامية أكثر عملية مقارنة بغيرها من المناهج، حيث استعملت في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فاستخدم الحساب في الفرائض والمعاملات وفي علم الفلك والفيزياء والطب. وقد كان للعلماء المسلمين السبق في وضع نظريات اجتماعية وعمرانية عملية تصبو للتمكين لمجتمع فاضل من خلال مبادئ يعيش في ظلها. وكان الهدف من تحقيق التكامل المعرفي الاسلامي الربط بين عالمي الغيب والشهادة وتحقيق سعادة الانسان في الدارين، واستنباط سنن الله وأسراره في الكون والتأمل في مخلوقاته وتحقيق الغاية من الوجود وخلافته سبحانه في الأرض.

في مقابل التجربة الاسلامية الرائدة، استلهمت الحداثة الغربية الكثير من المناهج الاسلامية لكن اختلفت أهداف وغايات الدمج بين مختلف المعارف والعلوم في الحداثة الغربية. فقد همشت العلوم الانسانية والاجتماعية الدين واستنكفت عن الخضوع لحقيقة موضوعية صحيحة منبعها الوحي والقيم الدينية. وهكذا نجد أن فلاسفة الأنوار منحوا الأولوية للعقلانية الأداتية التي ألهت التقنية والألة على حساب الروحي، وقدمت نظريات بررت للأخلاق النسبوية والارتيابية الشكية، وجادلت من أجل الأخلاق التطورية للانسلاخ من الأخلاق والقيم السماوية القيُمة. فاقترحت الأنوار الغربية مذاهب ونظريات عن مصادر الأخلاق تباينت بين كونها ذاتية، وعاطفية، وحسية، وعقلية، وبين كونها نابعة عن مجرد أهواء ونزوات. أسفر هذا تصاعديا عن بروز طموحات علموية طوباوية ابتدأت من محاولات تحقيق حلم الانسانية المتجاوزة ومنها القضاء على الموت والفناء. وتنازليا إلى وحل البهيمية، في استصحاب سلوكيات بعض الحيوانات – حول جنسانياتها الشاذة – والاستئناس بها كتجارب تؤشر وتبرر نزعة الشذوذ والانحراف. كما استخدمت المعارف الغربية المكتشفة في اخضاع الشعوب والتفريق بين الأمم وتقسيمها وتصنيفها والقضاء على

"المنحط" و"الوضيع" منها تطبيقا لمبادئ الداروينية الاجتماعية وقاعدتها الكبرى والمتمثلة في البقاء للأقوى في عالم ما فتئوا يبررون بأنه محدود الموارد. والمؤسف في ظل هذه الحقائق الجليُة تتعالى بعض الأصوات هنا وهناك تربط التكامل المعرفي الاسلامي بمعنى القوة والسيطرة والسلطة من دون أدلة وبراهين واضحة، ليبقى هكذا اتهام مجرد محاولة يائسة للتنفيس عن أوحال الحداثة والأنوار وتورطهما في كثير من البؤس والشقاء البشري الذي نشهد أثاره وتداعياته في حياتنا اليومية.

وفي الأخير، يمكن أن نخرج بعدة توصيات تخص هذا الموضوع ومنها:

أ) يجب اتقان هذه العلوم الانسانية والاجتماعية وأسلمتها لتكون خادمة للمجتمعات الاسلامية وخاضعة لحقائق الدين. إذ أن علوما انسانية واجتماعية من دون الاسلامية عمياْء، وعلوم اسلامية من دون الانسانية والاجتماعية جامدة ومنعزلة.

ب) يجب ترجمة أهم مصادرها ومناهجها من لغاتها، لذا كان تعلم لغاتها الأم ضرورة ملحة في عصرنا.

ت) يجب إعادة بعث وإحياء التراث الاسلامي بما يزخر به من مناهج اسلامية وانسانية واجتماعية خلدتها كتابات وأفكار أجدادنا، فاستفادت منه أمم أخرى وتركناه وراء ظهورنا.

ث) تغدو مهمة الدمج والتكامل بين العلوم الاسلامية والانسانية والاجتماعية ملحة في جامعاتنا ومعاهدنا الاسلامية، فقد أضحت هذه العلوم أدوات معاصرة ملحة لفهم واقع المجتمعات وبالتالي تحقيق مناط الأحكام الشرعية وتنزيلها في سياقاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية. ولا نبالغ في ضرورة إلحاق تعلم هذه العلوم والنهل منها إلى شروط الاجتهاد في الاسلام التي اشترطها العلماء السابقون.